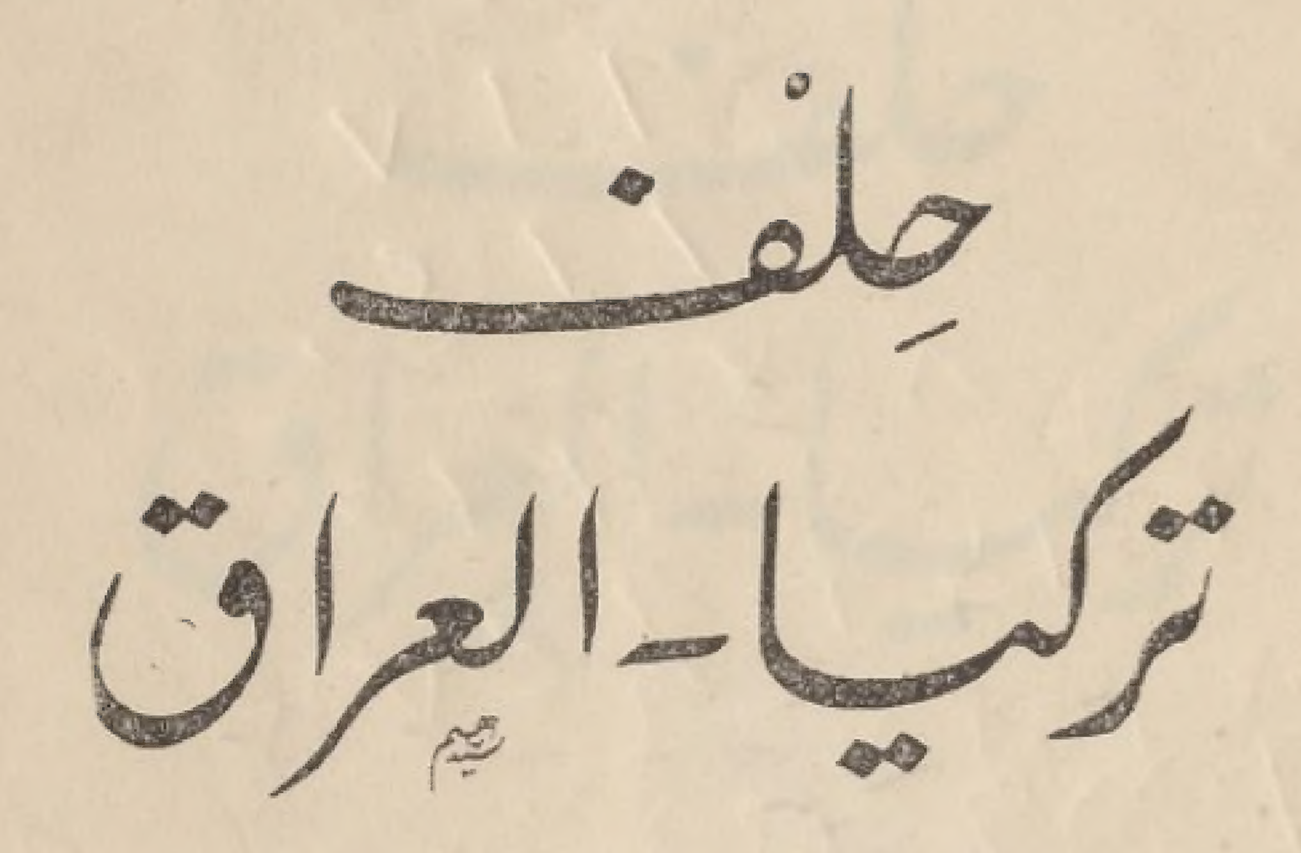
شيء من التاريخ



بقلم محمد زكي عبد القادر

شيء من التاريخ

حِلف

تركيا - العراق

بقلم محمد زكي عبد القادر

حلف تركيا ـ العراق

علاقة تركيا بالعرب علاقة قديمة . ففى مدى أكثر من ثلاثة قرون كانت البلاد العربية داخلة فى نطاق الامبراطورية العثمانية تدين لها بالولاء ، بحسبان الخليفة الجالس فى اسطنبول خليفة للمسلمين فلم تكن الرابطة بين العرب وبين الدولة العثمانية رابطة سياسية فحسب ، ولكنها كانت رابطة دينية أيضا .

ثم دب الفساد فى قصور السلاطين واتسم حكمهم بالرشوة والاستبداد وضيق الافق ونمت فى العاصمة التركية وبين القادة الاتراك نزعة ترمى الى تحقير العرب والنظر اليهم كأنهم جنس أدنى . ولم يصبح لهم تصيب يذكر فى حكم بلادهم ، ولا فى وظائف الحكومة المركزية فى استنبول وتعرضوا فى كل مكان للاضطهاد والظلم والفوضى .

ونشأت بين العرب حركة مضادة للتخلص من الحكم العثمانى ونمت فى نفوسهم فكرة الاستقلال عن الدولة العثمانية وانشاء كيان خاص لهم ، ونشبت الحرب العالمية الاولى فانتهزها زعماء العرب وقاموا بثورتهم على الحكم التركى والتجأوا الى دول الحلفاء

وعلى رأسهم انجلترا فوعدت بمساعدتهم على التخلص من الحكم التركى اذا انحازوا الى جانبها .

وانتهت الحرب العالمية الاولى بهزيمة تركيا والقضـــاء على امبراطوريتها . وقامت بعد ذلك حركة كمال أتاتورك وجعلت من أهدافها ابعاد تركيا عن العرب وعن كل جنس آخر غير تركى ، والاتجاه الى الغرب . وزاد أتاتورك فهاجم الدين الاســـلامى ، وطارد رجاله ، وقرر أن يجعل الدولة علمانية . وألغى الطربوش وفرض ارتداء القبعة ، وقال ان سياسة بلاده لن تتجه بعد الآن نحو الشرق . ولكنها ستجعل وجهتها الغرب .

وانقطعت الصلات أو كادت بين تركيا والدول العربية . بل لعل شيئا من الجفاء بين الفريقين أصبح هو الغالب . وفى الوقت نفسه ، أخـــذت البلاد العربية تنهض نهضـــة شاملة وتطالب باستقلالها وتعمل على التخلص من النفوذ الغربى شيئا فشيئا . وشملتها نهضة اقتصادية واجتماعية ، وزاد التكتل بينها بانشاء الجامعة العربية . وبعد أن كانت تركيا تنتحـل صـفة الزعامة فى هذه المنطقة مدى ثلاثة قرون أو أربعة وضح أن هذه الزعامة تنتقل منها الى الكتلة العربية التى تزيد عليها ثروة واتحادا ، وسكانا ، وامكانيات .

ووضح أن تركيا اخذت تضيق بهذا الوضع . وكان أن بالغت فى اتجاهها الى الغرب واعتمادها عليه ، طمعا فى أن تحصل منه

على مقومات عسكرية واقتصادية تجبر ضعفها وتزيد من مكانتها كى تستطيع انتزاع الزعامة من الدول العربية .

احياء لمشروع قديم

وفى سنة ١٩٥١ تقدمت الدول الثلاث الكبرى أمريكا وانجلترا وفرنسا ومعها تركيا بمشروع لانشاء مؤسسة دفاعية عن الشرق الاوسط — الى الدول العربية رجاء ان تشترك فيها . ولم تتردد هذه الدول فى رفضه ، لانها لمحت انه ينطوى على اهدار لاستقلالها وكيانها ، ويربطها باحلاف خارجة عن منطقة الجامعة العربية ومعنى ذلك انه يجعلها مرة اخرى تابعا للدول الكبرى ولتركيا .

وكان مجرد وجود تركيا فى هذه المنظمة دافعا الى نفور شديد بين الدول والشعوب العربية ، لانه احيا فى خواطرها التاريخ القديم للامبراطورية التركية وما قاساه العرب من سوء السياسة التركية ومن الشعور بأنهم جنس أضعف وأدنى .

وشعرت تركيا باللطمة الشديدة التى وجهتها اليها الدول العربية ، وزاد حنقها عليها . ولما جرت المباحثات فى سنة ١٩٥١ لحل مشكلة قنال السويس تدخلت تركيا ، واعترضت على سحب القوات البريطانية من مصر ، زاعمة ان هذا العمل سيكشف ظهرها ، ويعرض امنها للخطر .

وحفظها المصريون وسائر العرب للدولة التى يظهر ان مركب

النقص يسيطر عليها كلما كان الامر متعلقا بتفوق الدول العربية وحصولها على استقلالها ، فقـد كان ـ ولا يزال ـ مما يغيظها أن تصبح هـذه الدول التى كانت تابعة لها يوما من الايام فى مركز أقوى وافضل منها بكثير .

وحلت مشكلة القناة بتوقيع اتفاقية الجلاء بين مصر وبريطانيا فى أكتوبر سنة ١٩٥٤ . ومما لا شك فيه ان اصرار البريطانيين على اعتبار العدوان على تركيا سببا يتيح للقوات البريطانية العودة الى قاعدة القناة جاء بايعاز من تركيا ، رغبـة منها فى اثبات وجودها ، وانها عامل مهم بل اكثر أهميـة من الدول العربية .

واذا كانت مصر قد قبلت هذا الشرط فقـد فعلت ذلك دون الارتباط بأى موقف معين له ، أو بأى حلف خارج عن المنطقة التى جعلتها قاعدة سياستها ، ونعنى بها منطقة الجامعة العربية .

واخذ الاتراك ، وقد استعصت عليهم الجبهة العربية ، يحاولون النفوذ اليها من الابواب الخلفية فبدأوا يعربون عـن عواطفهـم الطيبة نحو البلاد العربية ، ويظهرون بمظهر الدولة المغتبطـة بمـا حققته هذه البلاد من استقلال وتحرر ، وبدأوا بالعراق لانهاالدولة العربية الاقرب اليهم والمرتبطة معهـم بميثاق « سـعد اباد » . وزار وفد صحفى تركى مصر فلقى ترحابا وديا ، واطنبت الصحافة المصرية فى ذكر العلاقات التقليدية بين تركيا والعـرب ، وقالت ان الاسباب التى كانت تحول دون ازدهار هذه العلاقات قد زالت تماما ، وان كل السبل ممهدة لقيام صـداقة وطيدة تستمد من

التاريخ القديم أصلها وتزكو فى الظروف الجديدة التى جعلت من تركيا والدول العربية اندادا ليس بينها سيد ومسود .

وصرح الرجال الرسميون بما يؤكد هذه الصداقة بين مصر وتركيا ، وزاد الرئيس جمال عبد الناصر فكتب مقدمة كتاب عن تركيا اشاد فيها بالصفات الطيبة التى يتمتع بها الشعب التركى وبالعواطف الجميلة التى يشعر بها الشعب المصرى نحو الاتراك . وتبودلت الخطب بين المصريين والاتراك فى مناسبة الحفلات التى اقيمت تكريما للبعثة ، وكلها تفيض بأحسن الآمال وأطيب التمنيات .

صداقة انداد

وكان واضحا ان مصر اذ تشير الى علاقات الصداقة بتركيا انها تقصد العلاقات القائمة على التعاون الاقتصادى والسياسى فى مجال الامم المتحدة وغيرها من المنظمات التى تربط دول العالم . ولم يكن يدور بخاطر أحد أن تشترك تركيا على أية صورة من صور الاشتراك فى الدفاع العسكرى عن منطقة الشرق العربى ، فقد كان مفهوما للضيوف الاتراك وللصحافة التركية وللساسة الاتراك ان كيان الجامعة العربية قائم على قصر الدفاع عن الدول العربية على هذه الدول وحدها ممثلة فى ميثاق الضمان الجماعى ، ولم تكن هذه سياسة مصر وحدها ، ولكنها كانت سياسة الدولة العربية كلها .

ولم تمض على هذه الزيارة سوى اسابيع حتى اذيع حوالى منتصف شهر يناير سنة ١٩٥٥ بيان مشترك فى انقرة وبغداد

يعلن ان كلا من تركيا والعراق قد اتفقتا على عقد حلف للتعاون العسكرى بينهما .

وكان الامر مفاجأة قاسية للدول والشعوب العربية التى لم تكن تعرف شيئا عن المباحثات التى أجريت بين السيد نورى السعيد رئيس الوزارة العراقية وبين السيد عدنان مندريس رئيس الوزارة التركية وأدت الى اذاعة البيان المشترك الذى اشرنا اليه .

وأحست الدول العربية أن شيئا يدبر من وراء ظهرها ، وأن هذا الحلف — اذا تم — كان خروجا صريحا على ميثاق الجامعة العربية وهدما لسياستها التى اختطتها للدفاع عن الدول العربية ممثلة فى ميثاق الضمان الجماعى دون الارتباط بأحلاف اودول خارجة عن هذا النطاق . وبدا أن المشروع القديم بانشاء منظمة للدفاع عن الشرق الاوسط تشترك فيها الدول العربية وتركيا وانجلترا وفرنسا وامريكا يبعث من جديد على صورة أخرى ، وهو المشروع الذى أجمعت الدول العربية من قبل على رفضه .

واعلنت مصر رأيها الصريح فى حلف تركيا العراق بلسان الصاغ صلاح سالم وزير الارشاد القومى ، وخلاصته أن هذا الحلف خروج على ميثاق الجامعة والضمان الجماعى ، واقحام لدولة غريبة عن العالم العربى وربط لهذا العالم بأحلاف خارجة عنه ، وهو مايناقض السياسة التى اجمع عليها اعضاء الجامعة العربية .

وكانت مصر فى هذا الموقف منطقية مع نفسها ومع سياستها وسياسة الدول العربية والجامعة العربية ، وسرعان ما استجابت

الشعوب العربية لهذا النداء واشتعلت فيها رغبة قوية بالوقوف ضـد الحلف المقترح .

ولم تشأ مصر الانفراد بخطة معينة ، فدعت رؤساء الوزارات العربية الى اجتماع عاجل عقد فى القاهرة فى النصـف الثانى من شـهر يناير سـنة ١٩٥٥ ، واعتذر عن حضـوره السـيد نورى السعيد فساعد هذا الاعتذار على ذيوع الاعتقاد بأنحكومة العراق أو ان نورى السعيد بالذات لا ينوى الرجوع عن الخطة التى ارتضاها بالاتفاق مع تركيا .

الدول الكبرى والحلف

ومما سـاعد على وضوح الموقف ان كلا من امريـكا وانجلترا أيدت الحلف الجديد، ورأت ان تركه مفتوحاالانضمام دول جديدة اليه مما يساعد على توثيق سلسلة الدفاع ضد الخطر الشيوعى. وأشارت بعض الصحف الى أن ايران وباكستان ستنضمان اليه ، وان بعض الدول العربية كذلك تنوى الانضمام اليه ، وأعربت عن دهشتها من موقف المعارضين له .

وهكذا تبلورت فى الافق كل عناصر المنظمة الدفاعية عنالشرق الاوسط التى قدم مشروعها فى سنة ١٩٥١ ، وأصبح جليا أن الدول الـكبرى المسيطرة على حلف الاطلنطى تريد بالتسرب الى العـالم العربى من طريق العراق الوصـــول الى تحقيق المشروع القديم أو تفتيت الجامعة العربية ، وكلاهما مطلب يستحيل على

الشعوب العربية ان تقره . فأولهما قضاء على ميثاق الضمان الجماعى وجر للدول العربية الى أحلاف خارجية ، وثانيهما اهدار للكيان العربى وعودة به الى ما كان عليه : كل دولة فى واد ، وكل شعب مرتبط بعجلة نفوذ أجنبى يمص دمه ، ويغض من حيويته ، ويهون من قيمته ، ويحول دون تقدمه ونهوضه .

وعقد المؤتمر المشار اليه فى القاهرة ، وبسطت مصر وجهة نظرها واشترك رؤساء الوزارات الذين حضروا الاجتماع فى بحث الموضوع وابداء وجهة النظر فيه . واهتمت الصحافة فى كل العواصم العربية بالموضوع وأيدت بصفة عامة وجهة النظر المصرية فى البعد عن الاحلاف والاقتصار على ميثاق الضمان الجماعى .

واخذت الانباء ترد من عاصمة العراق تارة برغبة السيد نورى السعيد فى تأجيل اجتماع المؤتمر ريثما يشفى ، وتارة بأنه سيرسل مندوبين عنه ، وينتهى الامر بارسال بعض ساسة العراق لكى يوضحوا وجهة النظر العراقية . وكان أن شهدوا الاجتماع واستمعوا الى آراء زملائهم وافضوا هم بآرائهم .

مؤتمر القاهرة

وكان واضحا ان حكومة العراق ليست مستعدة للعدول عن خطتها ، وانها تعتذر مع ذلك بأن لها ظروفا خاصة ، فالاكراد على حدودها يؤلفون مجتمعا ليس منسجما مع بقية العراق ، وهم واقعون تحت تأثير الدعايات الشيوعية . ثم ان افتراق الشعب

الى مذهبى الشيعة والسنة ووجود ايران ملاصقة لحدود العراق وقرب روسيا منه - كل أولئك يجعله عرضة للخطر أكثر من أية دولة عربية أخرى . ثم أن تجاور الحدود بين العراق وتركيا يجعل من حسن السياسة ولضمان السلامة التامة ان تتوطد العلاقات بين البلدين ، وان يشتركا فى دفع الخطر الذى يهددهما معا .

وابدى المندوبون العراقيون حجة اخرى خلاصتها ان ميثاق الضمان الجماعى ليس كافيا لتامين سلامة المنطقة ، لانه لم يخرج بعد الى حيز التنفيذ ، ولان قوة الدول العربية فى مجموعها ليست مما يكفى لتامين سلامة هذه الدول فى وجه هجوم سوفيتى او غير سوفيتى .

ولا ننكر ان للعراق وضعا خاصا ، ولكن كان من مقتضى الشعور بضعف الميثاق العربى ان يسعى العراق الى تقويته لا الى العدول عنه ، وكان من مقتضى الشعور بضعف الدول العربية من الناحية العسكرية ان يسعى الى تقويتها وليس الى ادخال عنصر غريب يتولى الدفاع عنها ، فليس لهذا من معنى سوى استمرار التبعية القديمة لتركيا وغيرها من الدول .

ولماذا هذا الظن الثابت : ان العرب ليسوا اقوياء ، ولماذا هذا الظن الثابت ايضا ان غيرنا أقوياء ؟ . لقد كان العرب فيما مضى اقوياء ، فالضعف طارىء عليهم ، وقد اخذوا يتخلصون منه ويثوبون الى رشد سياسى وعسكرى واقتصادى كان لهم فيما مضى . يلوح لى ان مركبات النقص لا تزال تحمل البعض منا على الايمان بكل ما

هو غربى والشك فى كل ما هو شرقى ومن واجبنا أن نتخلص منها بدفع الثقة الى الصدور وخلقها ان لم تكن موجودة .

ثم لنفرض ان العراق أكثر تعرضا للخطر من سائر الدول العربية ، ولنفرض أنه تعرض فعلا لهجوم شيوعى . أليس من مصلحة انجلترا وأمريكا وسائر الدول الديموقراطية أن تنهض لمساعدته حينئذ على رد العدوان ؟ أليس من المؤكد انها اذن ستفعل ذلك لا دفاعا عن العراق ولكن دفاعا عن نفسها ؟ كما أن الدول العربية ستشترك فى هذه المعركة حتما .. لماذا اذن نعقد الاحلاف ، ولماذا نتشبث بها اذا كان الواقع المؤكد يغنى عنها ؟

السلام والحرب

ولا بد من التفريق بين حالتين : حالة السلام وحالة الحرب . وقد فرغنا من حالة الحرب وبينا أنه سواء أوجدت أحلاف أم لم توجد فان الحرب ستملى ضروراتها على كل مشترك فيها وسرعان ما تنحاز كل دولة الى المعسكر المناسب لها تنفيذا لحلف أو جريا وراء مصلحة خاصة ، فالمهم هو حالة السلام . ووجود حلف معين خارج عن ميثاق الجامعة العربية سيملى قطعا على المشترك فيه سياسة معينة قد تكون ضد حرية الشعوب وقد تكون ضد مصلحة الدول العربية الراغبة فى التحرر من آثار الاستعمار الباقية . وقد تكون باتخاذ مواقف تعجل بالحرب العالمية دون مقتض .

فعلى اى جانب بحثت سياسة الاحلاف خارج نطاق الجامعة العربية ، تبين انها ليست فى مصلحة الديموقراطية وليست فى مصلحة الدول العربية كمجموعة ، وليست فى مصلحة حرية الشعوب الصغيرة ، وليست فى مصلحة الدول التى تعقدهاذاتها.

والحلف قيد يرد على حرية التصرف . ولماذا يقيد الانسان نفسه دون مصلحة ظاهرة أو غير ظاهرة ؟ ولو اتجهت الدول العربية الى سياسة الاحلاف لانتهى أمرها بأن تصبح تابعالاقيمةله أما سياسة الاعتزاز بالشخصية ، والحرص على الاحتفاظ بالاستقلال فى التصرف طبقا لما تمليه مصلحة الدول العربية ومصلحة السلام والديموقراطية فهى السياسة التى تجعل للدول العربية قيمة ، وتجعل لرأيها وزنا لا عند الدول الكبرى الغربية فحسب ولكن فى مجتمعات الدول بصفة عامة .

وأمامنا الهند وقد اختطت لنفسها سياسة مستقلة فازدادت قيمتها واصبحت آراؤها ذات اعتبار فى المحيط الدولى ، وليس لاحد ان يلومها او يوجه النقد اليها ، فانها بذلك تخدم السلام والحرية والديموقراطية أضعاف ما تخدمها الاحلاف التى لاتفيد الا فى زيادة التوتر الدولى ودفع العالم الى الحرب .

ثم ان المثل السائدة فى الدول العربية مثل ديمقراطية لا شك فيها تغذيها تقاليد عريقة وعقائد دينية ثابتة ، فاتجاهها المحتم معروف . ولا تكاد تلمح فائدة للدول الكبرى فى محاولة ربطها

بأحلاف أيا كانت ، وان من ساسة هذه الدول نفسها من ينادي بضرورة ترك الحرية للعرب يدبرون أمورهم كما يشاءون ، وينظمون الدفاع عن بلادهم بالاسلوب الذى يروق لهم وهم بعد ذلك أنصار أقوياء بالاختيار وليسوا حلفاء لا قيمة لهم بالاجبار . وقد كشفت حوادث الحربين العالميتين الاولى والثانية عن حقيقة لا سبيل الى الشك فيها هى ان العرب بطبيعتهم أميل الى الديموقراطية وأشد حرصا على الدفاع منها .

اسرائيل وراء الحلف

ثم ان هناك اسرائيل وهى عدو خطير للعرب . وقد رحبت بحلف تركيا - العراق ، وهى على استعداد للترحيب بكل خطوة تضعف الجامعة العربية ، لان أضعافها هو الامل الوحيد لها كى تبقى وتعيش وتزدهر وتعقد صلحا مع الدول العربية واحدة بعد الاخرى .. لماذا ننسى هذا الخطر ، ولماذا نقبل أن نحجب عن أعيننا اعتبارات محلية أو غير محلية مع انه خطر ينبغى التضحية بكل اعتبار من أجله ، لانه خطر شامل داهم لن يقضى على استقلال الدول العربية فحسب ، بل انه سيقضى ايضا على كيانهم وثروتهم ورخائهم ويجعلهم عبيدا أو ما يشبه العبيد من أجل الصهيونية ومطامعها فى التوسع والانتشار عبر الحدود العربية من الدجلة الى أرض النيـــل .

واجب تركيا

اما تركيا فمن الخـير لها أن تدرك عمق التطور الذى تحقق فى البلاد العربية ، وأن تعدل عن ظنونها ووراثاتها القديمة ، وأن توقن أن العودة الى بسط النفوذ على الشعوب العربية أصبح مستحيلا ومن الخير لها اذا كانت تريد أن تكون عضوا نافعا محبوبا فى هذه المنطقة أن تتخلى عن سياسة الاحلاف فيها . واذا كانت مصالحها الخاصة قد حملتها على الارتباط بحلف البلقان وحلف الاطلنطى فان الدول العربية ليست لها مصلحة على الاطلاق فى الارتباط معها أو الارتباط بما ارتبطت به من أحلاف .

واذا كانت قد رضيت لنفسها أن تـكون حيث أرادت فان الدول العربية تؤثر الاحتفاظ لنفسها بحريتها واستقلالها كاملين وقد رحبت هذه الدول بالصداقة التركية وأرادت نسيان الماضى الطويل المظلم الذى كان بينها وبين تركيا ، آملة أن تفتح صفحة جديدة من التعاون المخلص بين أنداد وليس بين أتباع .

فهلا استمعت الى صوت المنطق والواقع ، وهلا عدلت عن دس نفسها بين دول قررت فيما بينها ألا تدس نفسها فى أجناس غريبة عنها ، وأن تحل مشاكلها وحدها وان كانت فى الوقت نفسه تمد يدها مخلصة لكل دولة من دول العالم ، راجية أن تتعاون مع الجميع لمـا فيه خير السلام والحرية والديمقراطية .